رابندرانات تاجور

بعض آرائه فى الحياة والفن

مضى تاجور شاعر الهند العظيم وحكيمها النادر المثال بعد أن تعقبه المرض فى الأشهر الأخيرة ، واشتدت به وطأة العلة ، ومثل تاجور لا يحمل أن يغيب شخصه عن عالم الثقافة ومسرح الحياة دون أن يشيع بكلمات الوداع ، ويذكر بكبير التقدير وعميق الإعجاب ، ولم يكن تاجور حجة الهند وحدها ، وعلماً من أعلام الشرق فحسب ، وإنما كان مفخرة من مفاخر الإنسانية فى كل العصور ، وقد مات بعد عمر مديد وحياة حافلة ، ولكن اختفاءه فى هذه الأيام الحالكة الناصبة والحاجة ماسة إلى أمثاله مما يثير الأسف ويضاعف الخسارة .

وقد اجتذب تاجور الأنظار بمثاليته العالية وعبقريته السامية ، ورحابة أفقه وإخلاص سريرته ، وأشعاره التى ترجمها عن البنغالية إلى الإنجليزية تعد من آيات الأدب الإنجليزى وروائع الشعر العصرى ، وقد منح من أجلها جائزة نوبل ، وقد رفع هذا الرجل مكانة أمته ، وأبعد صوتها وأكسبها عطف الكثيرين .

ولتاجور جوانبه المتعددة التى يصعب الإحاطة بها وإيفاؤها حقها ، فهو شاعر الغناء ، وشاعر الطبيعة ، وشاعر القومية والتضحية ، وهو روائى ممتاز وقاص بارع وناقد نافذ النظرات ، وفيلسوف بعيد التأملات ، وأدبه فى تنوعه وكثرته يقدم لنا نقداً شاملا للحياة العصرية واتجاهات الفكر الحديث ، تضيئه لمعات من تعاليم الأوبانشاد ، وتشرق فيه أضواء الرؤى المقدسة ، وقد كان

تاجور موسيقيا مجيداً وعالج فى السنوات الأخيرة التصوير فاسترعت صوره الأنظار وحازت التقدير ، ولم يترفع عن الانغماس فى الحياة العملية ، فجاهد فى حركة بلاده القومية واضطره ولاؤه لوطنه إلى أن يرد اللقب الذى منحه إياه الإنجليز ، ومجهوده فى رفع مستوى التربية والأخلاق معروف ، وطالما نعى تاجور على الحضارة الراهنة نزعتها المادية واستعبادها للآلة ، واندفاعها فى سبيل القومية الطائشة ، وكان فى طليعة الداعين إلى السلام والروحية ، والعاملين على إيجاد «العقلية الدولية» التى تستطيع أن تجنب العالم ويلات الحرب وفواجع الخراب والتدمير .

والإنسان فى رأى تاجور كائن خالد يجمع فى نفسه بين الروح والطبيعة ، فهو ابن الأرض ووارث السماء ، والإنسان من حيث هو حلقة من الحلقات فى سلسلة الحوادث الطبيعية خاضع لقانون الضرورة ، ولكنه حر من حيث هو متصل بعالم اللانهائى ، وهذا هو مصدر التناقض الذى يصادفنا فى الحياة والفن والأخلاق . فالفرد ينزع إلى الحق الكامل والجمال التام والخير جميعه ، ولكنه لايستطيع فى هذه الدنيا الفانية إلا أن يدانيه ويقاربه ، والعقل يتطلب المثل الأعلى للحق ويود أن يشمله ويستوعبه ، ولكن العقل بنزعته الانفصالية وميله إلى التحليل يجد نفسه عاجزاً عن الاستيلاء على «الكل» وفى الناحية الأخلاقية نشعر بتقصير الحقائق الواقعة عن النوازع السامية والمطالب المثالية . وهناك نزاع محتدم الأوار مشبوب اللهيب فى نفوسنا بين الجانب اللانهائى وبين المحدود فينا الذى ورثناه من بقايا التطور القديم ، وقد تهولنا ضخامة القوى السفلية ويروعنا انتصارها وعجزنا عن مقاومتها ورد غائلتها فنتساءل : هل شعورنا بالكمال وهم ؟ وهل انتصارنا لجانبه واستبسالنا تحت علمه جنون وحماقة ؟ وهل هناك أمل بالفوز فى المعركة ؟ أو هى معركة مقضى عليها بالإخفاق ؟

والمتشائمون فى كل عصر يريدون استئصال المطامع وإخماد الشهوات ونيل الحرية الداخلية ، ولكنهم يرون الحياة ملأى بالمتناقضات ، ويرون الطبيعة عابسة الوجه ، فيلوذ فريق منهم بلون من ألوان الصوفية التى تحتقر الطبيعة وتزدرى الإنسان ، ويرددون أن المطلق يختلف عما نعهده فى عالمنا ، وأنه نقيض المحدود ، وأنه وحده الحقيق وأن الدنيا وهم لا وجود له ولا حقيقة ، ولكن مثل هذه الفلسفة تجعل المطلق تجريداً بعيداً عن الدنيا ، وتقول بإن إخماد الروح هو غاية الإنسان ، ولكنها بهذا الصنيع تقطع العلاقة بيننا وبين المطلق ، ولا تجيب مطالب الروح ، وتخذل الإنسان فى صراعه وتغريه بأن يأخذ جانب الشر أو يعبد القوة كما فعل نيتشه .

ويرى تاجور أن مفكرى الغرب يفخرون بأنهم عاملون على إخضاع الطبيعة كأننا نعيش فى دنيا تضمر لنا السوء ، وعلينا أن نشهر عليها حرباً عواناً لإخضاع عصيها وانتزاع خيراتها ، ويعلل ذلك بنشوء الحضارة الغربية فى المدن ، على نقيض الحضارة الهندية التى نشأت بين أحضان الغابات الفيحاء ، محتمية بها مترعرعة فى ظلالها ، ولم يضعف ذلك العقلية الهندية ، وإنما وجهها توجيهاً خاصاً ، وهذه الصلة الوثيقة بالطبيعة لم تجعل وكد الهندى أن يبسط سلطانه على الأشياء ويخضعها لإرادته ، وإنما أوسعت نظره وأفاضت عطفه ، وأكدت العلاقة بينه وبين ما حوله ، ونفت عنه وحشة العزلة والشعور بالفردية ، وعلمته أن السبيل الوحيد لإدراك الحق هو تغلغلنا إلى صميم الأشياء ، وتبادلنا وإياها الحب والعطف ، وكان هدف حكماء الهند على الدوام هو الملاءمة بين روح الإنسان وروح الدنيا ، ولما تولى عهد الغابات ونشأت المدن العامرة المزدهرة والدول العظيمة النفوذ ظلت الهند تستوحى مثلها العليا القديمة ، وتستمسك بأفكارها السالفة ، وتعتز بحكمتها ومدخر كنوزها ، فالدنيا والإنسان فى نظر

الفلسفة الهندية حقيقة واحدة عظيمة خالدة ، والإنسان يستطيع التفكير لأن أفكاره منسجمة مع الأشياء ، ويستطيع استعمال قوى الطبيعة وتسخيرها لأداء أغراضه ، لأن قواه منسجمة مع القوى العامة السائدة . ومن ثم لا تتناقض أغراضه مع أغراض الطبيعة فى المدى الواسع والأهداف القصوى .

ويغلب على الغربيين الشعور بالحواجز والفواصل بين الإنسان والطبيعة ، فكل ما كان عليه طابع الكمال فهو فى نظرهم إنسانى ، وكل ما هبط مستواه وقلت قيمته فهو محسوب على الطبيعة . ولكن العقل الهندى لا يتردد فى الاعتراف بالأواصر القوية بين الإنسان والطبيعة ، ولا يعتبر ذلك فكرة فلسفية ، وإنما يعتبره غاية عملية يتوخاها ويجهد لتحقيقها .

والعالم يعرف أن الدنيا ليست مجرد ما يبدو للحواس ، وكذلك الحكيم ينفذ ببصيرته إلى الحق الكامن وراء المظاهر ، وهذا الضرب من المعرفة لا يزيده قوة ، وإنما يمنح نفسه الصفاء ويهبها السرور ، وعندما يتعرف الروح الخالدة فى الأشياء تتكشف له الدنيا فى أروع معانيها وأوفى دلالاتها .

والحضارة الغربية قائمة على مجاهدة الطبيعة والتغلب عليها ، واستثارة قوى الإنسان ، وتنظيم جهوده وحشد كتائبه وجموعه ، وهى تفنن فى ابتكار الوسائل الطريفة وخلق الأسلحة المستحدثة ، وهذا فى ذاته عمل باهر ومظهر رائع من مظاهر فرض سيادة الإنسان وعرض قدرته .

وقد أهملت الحضارة الهندية هذا الجانب ، فلم يكن غرضها إحراز القوة ونيل السعادة ، وعنيت بحياة التأمل والاستغراق فى كشف غوامض الحقيقة وخفايا الكون ، وقد كلفها ذلك ثمناً غالياً ، وجعلها تخفق فى عالم المنافسة العالمية ، وتتخلف فى طريق النجاح الدنيوى ، ولكن هذه النزعة ذاتها كانت مظهراً رائعاً من مظاهر الطموح الإنسانى الذى لا يعرف حداً ولا ينتهى عند

غاية ، والذى لا يطمح إلى ما هو أقل من تحقيق اللانهائى .

ويبدو الفرق بين العقلية الأوربية والعقلية الأسيوية واضحاً الوضوح كله فى هذا النظر إلى البيئة والمحيط ، والأوربى عندما يستصعب قوى الطبيعة يستمد قوة من الله ، ويستنجد به لمغالبتها ، فالله فى زعمه يقود البشر ضد الطبيعة .

ويرى تاجور أننا لو أنعمنا النظر رأينا شوابك القرابة بين الإنسان والطبيعة وبين النفس واللانفس ، وهو يقول فى كتابه العظيم «سادهانا» «لا يمكن أن يكون لنا أى اتصال بما حولنا إذا كان غريبا عنا منقطع الصلة بنا . وليست النفس واللانفس نظيرين متنافسين ، وإنما هما وجهان لنفس المطلق ، وحالتان مختلفتان من أحوال وجوده ، وليست الروح منافرة للطبيعة ، ولا الطبيعة مناقضة للروح ، وإنما هى وقود للهيب الروح ، والإرادة البشرية تستمد قوتها مما يحيط بها ، والطبيعة قابلة للتكيف حسب إرادة الإنسان ، وغير النفس إنما هو وسيلة لإظهار القوى الروحية ، والروح لا تحقق نفسها وندرك جوهرها إلا عن طريق الطبيعة» .

ويرى تاجور آثار الروحية فى كل شىء ، فكل مظهر من المظاهر يحرك فى نفسه العبادة ، ويثير التقوى ، ويطلق من شفتيه الأنغام والتهاليل .

والفن الصادق عند تاجور هو الذى يسمو بنا فوق آلية الحياة ، وينسينا نقصها وصغائرها ويخرجنا من قيود التكاليف ومصطلحات العرف ، ونسيان النفس هو مصدر السرور الفنى ، والشاعر الفنان هو الذى يطلق فى نفوسنا الشاعر الفنان ، وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا كان شعره وليد نسيان النفس والشاعر الحق يحلق فوق المطامع والشهوات ، ويرتفع إلى المستوى الروحى حيث ينتظر الضوء ويتلقى الوحى وهو يتصل اتصالا مباشراً بالشىء الذى يود تفسيره . ويغرق فيه شعوره ويشمله بعطفه ويفنى فيه . وعندما يتهيأ له ذلك ويتم الامتزاج

بين نفس الشاعر والشيء الخارج عن نفسه يبدأ «الفن» وعندما نقول إن غاية الفن هى السرور والمتعة ليس معنى ذلك أن الفنان يقصد إلى ذلك ويتعمده تعمدا . لأن الخلق الفنى خلق تلقائى والفنان لا يتحرى الخلق لأنه يريد الإمتاع وإشاعة السرور . وإنما هو يعبر عما يستفيض فى نفسه ويجيش به شعوره ، والفن يعين الروح على صدع قيودها وكسر أغلالها ويعقد السلام بينها وبين الدنيا . وهو يرد غربة الروح ويدخلها عالم الحرية المطلقة وعالم الجمال وهو يستنزل اللانهائى إلى الحياة ، ويشيع السرور فى جنباتها .

وليس غرض الفن تعليمياً وإنما غرضه السرور والإمتاع لا العلم والتحصيل ، وأن يستحث النفوس إلى الغايات النبيلة لا تلقين الدروس ونثر المواعظ ، والفلسفة تجادل وتعارض ، والدين يأمر وينهى ، وإنما الفن يسر ويمتع . وقد يكون التعليم نتيجة الفن ولكن غرضه هو المتعة .

وليس من أرب الشعر أن يحدثنا عن الفلسفة ولكنه لا يستطيع أن يؤدى رسالته إلا إذا تضمن رؤية فلسفية . وخير الشعر هو ما فسر لنا الحياة ووافانا بآراء أنضج وأكمل عن حقيقتها ، والشعر لا يمتع إلا إذا أبان لنا الأبدى الخالد خلال صوره وخيالاته . والشاعر الحق يلمح «الكلى» خلال «الجزئى» والشعر والفلسفة ليسا نقيضين . وصاحب العقل المكدود والنفس المهتاجة الثائرة لا يكون شاعراً حقًّا لأن النغمات التى تجرى على اللسان صدى النغمات التى يفيض بها القلب . ولا يتزن العقل ويستقيم إلا إذا تحرر من أسر الشكوك . ولكى تسمو الروح إلى مستوى الشاعرية لابد لها أن تنسجم مع أرواح الأشياء ويزول الخلاف بين الداخلى والخارجى .

والمتشائم لا يكون شاعراً من الطراز الأول ، وكذلك الزاهد الناسك الذى يثور على الحياة ويناصب الدنيا العداء ، وشعر التشاؤم قائم على التناقض لأن

الذى لا يرى فى الحياة شيئاً قيماً محال أن يكون شاعراً ، والشاعر الباحث عن الجمال فى الأشياء لابد أن يحب الأرض ويرضى عن الحياة ، وتكون روحه هادئة مطمئنة راضية مرضية ، غير شاعرة بالغربة والوحشة ، وهو يلمح الاتساق والتوافق فى «بابل» الفوضى ، ويستخرج الخير من خلال الشر ، ويلمح الأبد من ثنايا الزمن ولا يسوء ظنه بالحياة إذا صدمته متناقضاتها ، ولا يراها هدفاً للفوضى ، وقد يلم الشاعر بمتناقضات الحياة ، ويصف فواجعها ، ولكن مع اعتقاده أن النهاية هى الخير والسلام لا اليأس والشر ، وليس معنى ذلك أن يرى الدنيا جنة دانية القطوف خالية مما يسوء ، فإن عليه أن يواجه الحياة بكل ما فيها من فواجع وآلام ونقص وقبح ، ولكن ليشعر فى النهاية بأنها دنيا صالحة ، فهو يصف معارك الروح وأزماتها ليرينا السلام وراء ذلك النزاع ، والاتساق وراء الفوضى والاختلاط ، ورسالة الشاعر والفيلسوف هى أن يظهرا لنا أن النزاع والفوضى ليسا هما نهاية الأشياء وخاتمة المطاف ، فالفيلسوف يقول بأن كل تناقض نراه هو فى صميمه انسجام واتساق قد غاب عنا سره ، والشاعر يبصرنا روح الأشياء الصالحة .

والشاعر يفسر الحقائق ويميط اللثام عن سرها ولا يكتفى بملاحظتها وتسجيلها ، والفيلسوف يكشف عن المعنى الكامن فى الأشياء ، وينفذ إلى ماوراء الظواهر ، والشاعر يستخرج من مظاهر الأشياء الناقصة الزائلة الجمال الروحى الباطن ، وهو لا يقلد الحياة فى داخل الأشياء ، والشعر والفلسفة كلاهما مرآة لحقيقة الحياة لا للحياة كما تتراءى لنا ، والفن هو المجهود الذى يبذله العقل البشرى فى تفهم الروح الداخلية للأشياء ، وليست مظاهر الحياة جميلة فى ذاتها ، وإنما هى تشير وترمز إلى جمال محجوب خلفها ، فالشعر ينزع إلى صميم الأشاء ويخلص إلى دخائلها ، ولا يقف عند حدود الطبيعة البادية ،

ومصير الطبيعة النهائى هو أن تسمو وتتهذب وتصير روحا ، ووظيفة الفنان هى أن يسمو بالطبيعى إلى الكمال المقسوم ، والشاعر يطلق الروح المحبوسة فى الأشياء . وعند ما يلمس الشاعر المادة تفقد ماديتها ويغدو نقصانها كمالا وفناؤها بقاء ، والفلسفة عند تاجور هى معبد الحق ، والشعر فى رأيه هو حرم الجمال .